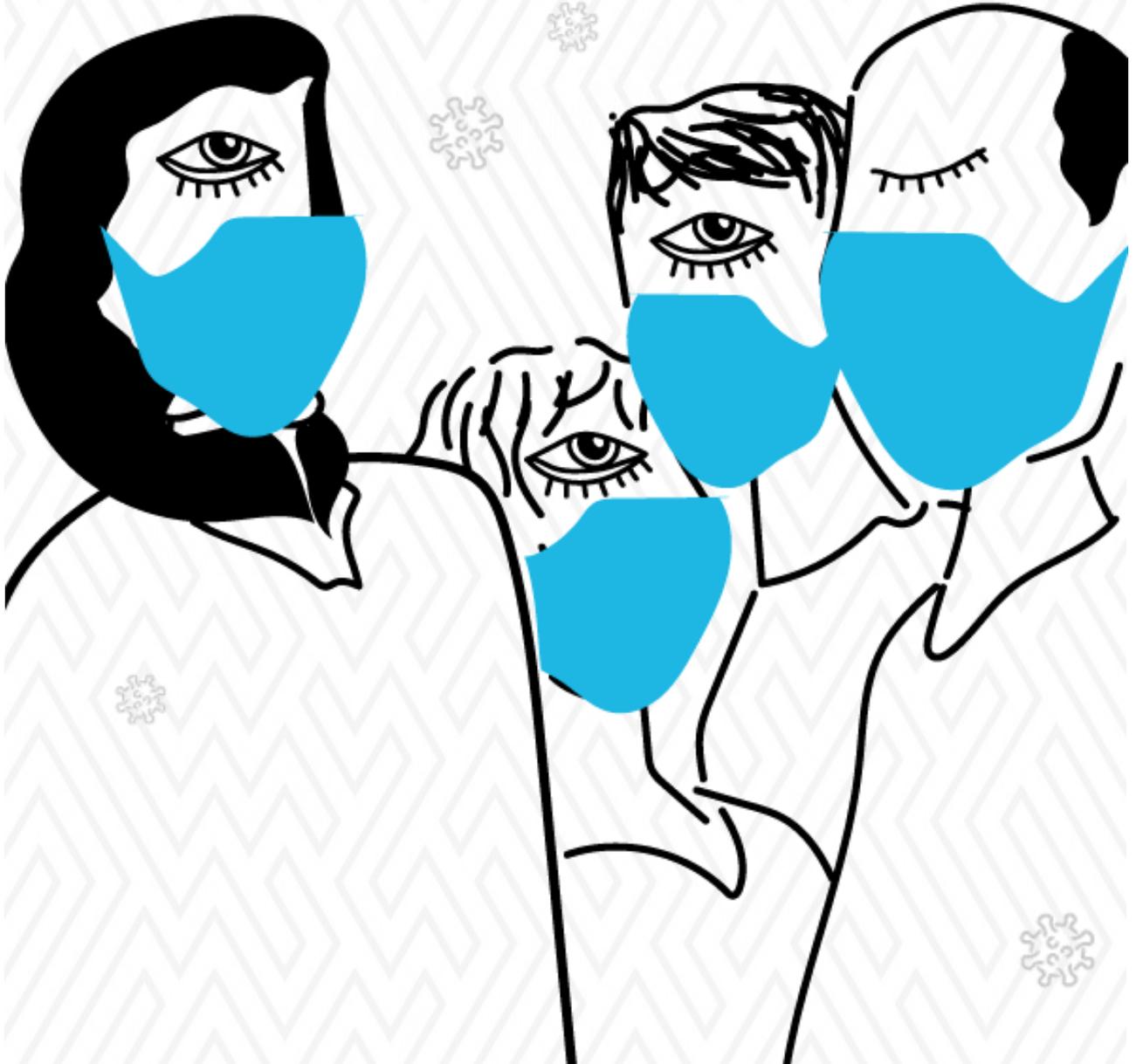




المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

جائحة كوفيد 19 وتطور نوايا الهجرة لدى الأسر التونسية دراسة ميدانية بسبع ولايات

اعداد
زهير بن جنات



تم انجاز هذه الدراسة في إطار مشاركة المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية في المشروع البحثي "الحماية الاجتماعية بعد التباعد الاجتماعي في منطقة شمال افريقيا والشرق الاوسط" كعضو في "الملتقى العربي للحماية الاجتماعية".

تونس، ديسمبر 2021

**الملتقى العربي للحماية
الاجتماعية من كوفيد** 

فهرس

4.....	مقدّمة عامة
4.....	أولاً: منطلقات إشكالية ومنهجية
5.....	1. أهداف الدراسة وأسئلتها البحثية
5.....	2. الخيارات المنهجية
	1-2. العينة ومجال الدراسة
	2-2. تقنيات جمع المعطيات
.....	3. السياق 5
6.....	ثانياً: تحولات الأسرة التونسية في ظل الجائحة
6.....	1. الأسرة في مواجهة الفيروس: حجم الإصابات وكيفية التعامل مع الوباء
7.....	2. تأزم أوضاع الأسر، تقهقر المداخل العائلية وتوسع دوائر الهشاشة
8.....	3. التضامات العائلية: الأسرة مركزاً للتوترات بين الأفراد وملاذهم الأخير
8.....	ثالثاً: في سياق الجائحة: أزمة الادمج الاجتماعي وتطور النوايا الهجرية
8.....	1. أزمة الادمج الاجتماعي وتنامي العوامل الطاردة
	1-1. مستويات الرضا الفردي
	2-1. ضعف الانخراط في الحياة العامة
10.....	2. الإرث الأسري في مجال الهجرة وبداية تكوّن المشاريع الهجرية
10.....	1-2. حركية الأفراد والأسر من خلال التجارب السابقة
11.....	2-2. شبكات الهجرة العائلية وتأثيرها على المشروع الهجري
11.....	3. تطور النوايا الهجرية في ظل الجائحة
11.....	1-3. سؤال الرحيل أو الاستعدادات الكامنة للهجرة
12.....	2-3. جدلية العوامل المحفزة - العوامل المنفّرة
13.....	3-3. بلد الوجهة ومستويات التقدم في انجاز المشروع الهجري
15.....	خاتمة واستنتاجات
17.....	مراجع بليوغرافية

مقدمة عامة

كثيرة هي المؤلفات والتقارير التي كُتبت حول جائحة كوفيد 19 في تونس وفي العالم بالإضافة الى ما قد يظهر قريبا من وجوه ابداع مختلفة تؤرّخ لملاحم عديدة، تصف مآسي وتحقّي بانتصارات وتفتح آفاقا أخرى للتحليل والتقييم والاستشراف. ولئن يبدو بشكل عام أنّ أوجه الاتفاق بين مختلف المؤلفات والتقارير أكبر بكثير من أوجه الاختلاف فيما يتعلق بأسباب الجائحة ونتائجها وانعكاساتها المستقبلية، فإنّ السبب الرئيسي في ذلك يعود في نظرنا الى اختصار الجائحة في أبعادها الصحية والاقتصادية والمالية، على أهميتها البالغة، وعدم الانتباه الى بقية الأبعاد التي يمكن أن تستثيرها في حياة الأفراد والمجموعات الجائحة كونية بحجم جائحة كوفيد 19. وانطلاقا ممّا سبق كان خيارنا بأن يتعلّق اسهامنا فيما يقوم به المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية في مجال تحليل آثار الجائحة واستشراف نتائجها ليس فقط من باب دراسة انعكاساتها الظاهرة بل من باب دراسة ما يمكن أن يخفى في علاقتها بالتحوّل الاجتماعي بشكل عام وبما قد تفرزه على الأمدين المتوسط والبعيد من تحولات على مستوى الظواهر والممارسات الاجتماعية الفردية والجماعية وكذلك على مستوى المؤسسات فجاءت هذه الدراسة.

الجائحة وتطور النوايا الهجرية لدى الأسر التونسية دراسة ميدانية في سبع ولايات تونسية¹، انطلقت من قراءة مختلفة عن السائد ورافضة لاختصار الجائحة في أبعاد دون أخرى ومؤمنة بما قد توفّره الجائحة من فرص للنقد وللبناء وللمراجعة وللتعقّل وما قد يحدثه كل ذلك من تغييرات على سلوك الناس كذوات فردية أو كجماعات. بل ربّما تكون الجائحة أحد المجالات التي يمكن أن تحتضن قرار الهجرة وترعاه وتساند تنفيذه وربّما تكون كذلك فرصة للفرار من واقع لا يرضي الفاعلين أو توفّر إمكانيات غير معهودة للفعل في هذا الواقع ونقده وتغييره أو تغيير ذوات الفاعلين ليكونوا أكثر قدرة على استلھام واقعهم وتوجيهه الى حيث يريدون. قد تكون الجائحة سببا لتنامي مظاهر الأنانية والقضائية والفئوية والجهوية وقد تكون كذلك ملهمة لحلول غير مألوفة وقد توفّر فرصا فريدة لمراجعة بعض الخيارات أو لتعديلها وقد تُهدي لفاعلين مختلفين إمكانيات إضافية للتضامن وللبحث عن فرص إضافية للخلاص الجماعي وقد تُحيي فيهم أيضا قيم التضحية والديثار من أجل الآخرين.

لا يتعلّق الأمر اذن بالبحث في الآثار المباشرة للجائحة، رغم أهمّية هذا البعد الذي يتحوّز على جزء هام من الدراسة، أمّا الربط بينها وبين الهجرة فإنّه لا يقف عند حدود ما هو ظاهر بل يمرّ الى ما هو أعمق أي الى المستوى الذي يسمح بالانتباه الى الهجرة كظاهرة وكسلوك وكمشروع حياة فردي و/أو جماعي، ولذلك أيضا جاء الاهتمام بالأسرة ليس فقط كمؤسسة اجتماعية ولا فقط كإطار حياة وفعل بل وكذلك كمجال استثمار فردي وجماعي وكتعبيرة من تعبيرات تفاعل الفاعلين فيما بينهم وتفاوضهم وبنائهم للمشترك بينهم.

أولا: منطلقات إشكالية ومنهجية

تنطلق هذه الدراسة من جملة من الاستفهامات النظرية والميدانية التي لا نروم الإجابة عليها بقدر ما نروم استحثاث التفكير فيها. أمّا هويّتها التحرّرية المواطنية وخلفيتها الحقوقية باعتبار الإطار الجمعياتي الذي أنجزت فيه فإنّه يجعل الغاية كذلك من هذا البحث هو تزويد القارئ عموما والفاعلين الاجتماعيين بشكل خاص بالبيّات تفكير مختلفة ليكونوا خاصة أكثر وعيا بالقضايا وأكثر نجاعة في طرحها واستشراف نتائجها. وبشكل عام يمكن أن نلخص جملة الأهداف التي انطلقت منها هذه الدراسة وأهم أسئلتها البحثية فيما يلي:

¹ ننوّه في هذا الإطار الى أن نجاح هذا العمل مدين الى السيدات والسادة: عماد شكري الخبير في الإحصاء ومحمد بن عمر الخبير في الإعلامية والباحثين الميدانيين أمال مسعود وأمينة طرشون وتسليم حمدي ورمزي حكيمي وشاهيناز هنشيري وكوثر بوبكر ومحمد معمري ومريم كحيلية والى التعاون الكبير لفريق الاشراف بالمنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية وخاصة المنسقين رمضان بن عمر وسيرين الغنوشي.

1. أهداف الدراسة وأسئلتها البحثية

تهدف هذه الدراسة أساسا الى:

- 1) تحديد كيفية تفاعل الأسر مع الجائحة من حيث أشكال التأقلم واستراتيجيات المقاومة والصمود
 - 2) تحديد مدى تأثير الجائحة على الأفراد داخل الأسرة وخارجها وخاصة في مستوى الرضا العام
 - 3) دراسة مستويات تطوّر النوايا الهجرية في ظل الجائحة
 - 4) دراسة مستويات تغيّر المشاريع الهجرية ومساهمة الأسر فيها وامكانيات تحقيقها مستقبلا
- أما بالنسبة للأسئلة التي تنطلق منها الدراسة فيمكن أن تتلخّص كما يلي:
- 1) كيف تعاملت الأسر التونسية مع الجائحة؟
 - 2) ماهي مستويات تأثير الجائحة على الأسر التونسية؟
 - 3) ماهي نسبة الرضا العامة للتونسيات والتونسيين على واقعهم في ظل الجائحة؟
 - 4) هل تغيّرت النوايا الهجرية لدى الأسر التونسية في سياق الجائحة؟
 - 5) هل تُعتبر الأسرة عنصرا مشجّعا على بناء المشروع الهجري وتنفيذه أم أنّها عنصر معطل له؟

2. الخيارات المنهجية

2-1. العينة ومجال الدراسة

بالنظر الى الإمكانيات المتاحة والى جملة الأهداف المرسومة مسبقا، اعتمد هذا البحث على عيّنة قصدية من 1400 أسرة وذلك من خلال بناء 7 مناطق اسقاط متقاربة من حيث الحجم (81207 أسرة بمعدّل 11600 أسرة لكل منطقة) وموزعة على مختلف الأقاليم التونسية ليقم في مرحلة ثانية اختيار عدد من المستجوبين بنفس تمثيلية مناطقهم في العينة الجمالية وموزعين بدورهم حسب الجنس والعمر ووسط الإقامة (حضري - غير حضري) بنفس خصائص مناطقهم الأصلية في المستويات الثلاثة حسب آخر تعداد عام للسكان والسكنى (2014).

2-2. تقنيات جمع المعطيات

تم في إطار هذه الدراسة اعتماد تقنية الاستبيان كتقنية أساسية حيث تم توزيع 1406 استبيان في 11 معتمدية تونسية تنتمي الى 7 ولايات² وقد شمل الاستبيان الفردي الذي تم اعتماده في هذه الدراسة 4 أقسام: (1) قسم يضم أسئلة تتعلق بالخصائص الديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمستجوب ولأسرته، (2) قسم يتعلق بمستوى الرضا تجاه الواقع العام على المستويات المحلي والجهوي والوطني، (3) قسم يتعلق بمستويات تأثير جائحة كورونا على الوضع الاقتصادي والاجتماعي للأسرة، (4) وقسم رابع يهتم بالهجرة وبنوايا الهجرة ويضم مجموعة من الأسئلة التي تهدف الى تحديد طبيعة العلاقة التي يقيمها التونسيون عموما مع الهجرة كظاهرة وكمارسة وكذلك الى تتبّع مسارات نشأة المشاريع الهجرية وامكانيات تنفيذها.

وبالإضافة الى الاستبيان قمنا بإجراء مقابلات نصف موجهة مع ممثلي 17 أسرة تونسية من نفس المناطق وقع اختيارهم أساسا وفق العمر والجنس والتجارب الفردية والعائلية في مجالي الهجرة.

3. السياق

أنجز هذا العمل في نهاية السداسي الأوّل من سنة 2021 حيث قمنا بالبحث الميداني بين يومي 15 جوان و15 جويلية بالنسبة للاستبيان أما المقابلات الفردية فقد تواصل إنجازها الى يوم 25 جويلية 2021، لنقرّر بعد ذلك إيقاف الأعمال الميدانية والاكتفاء بما وقع إنجازه قبل ذلك حتى لا نسقط في فخاخ الاستنتاجات المتسرّعة والتعميمات المسقطة ونضمن قدرا معقولا من انسجام السياق ووحده.

وبشكل عام، يمكن تلخيص ملامح السياق العام الذي أجري فيه العمل الميداني فيما يلي:

² حمام الأنف بين عروس وتاكلسة وبوعرقوب بنابل وقلعة سنان وتاجروين بالكاف وقصور الساف بالمهدية وفريانة بالقصرين ودوز الشمالية وسوق الأحد بقبلي وتطاوين الشمالية وغمراسن بتطاوين

على المستوى الصحي، شهد السداسي الأول من سنة 2021 تفاقما للأزمة الصحية التي شهدتها البلاد منذ مارس 2020 مع تسجيلها لأولى حالات الإصابة بفيروس كوفيد 19 حيث ارتفع نسق العدوى بشكل كبير جدا أواخر شهر جوان ولأول مرة 4000 حالة يوميا بعد أن كان في حدود 1230 حالة قبل شهر وحوالي 700 حالة نهاية شهر فيفري وحوالي 1750 حالة مطلع شهر جانفي. أما بالنسبة لحالات الوفاة فقد شهد السداسي الأول وفاة أكثر من 10 آلاف شخص منهم 2000 حالة في شهر جوان لوحده³. هذا، وقد اضطرّ تأزم الوضع الصحي الحكومة الى اتخاذ إجراءات وقائية عديدة بما في ذلك الحجر الصحي الشامل لفترات متفاوتة خلال شهري جانفي وماي وحظر الجولان واغلاق بعض الولايات والمعتمديات... الخ.

على المستوى السياسي، مع مطلع العام 2021 شهدت تونس بداية أزمة سياسية عميقة انطلقت باقتراح رئيس الحكومة تعديلا وزاريا حضي في 16 فيفري بموافقة البرلمان ولكنه ظلّ دون تطبيق نظرا لرفض رئيس الجمهورية استقبال الوزراء لأداء اليمين الدستورية. كما شهد السداسي الأول من هذا العام عدة صراعات سياسية بلغت حدّ العنف المادي بالبرلمان بالإضافة الى توتر العلاقة بين رئاسة الجمهورية والبرلمان ورئاسة الحكومة. أفضت الأزمة السياسية الخانقة الى اتخاذ رئيس الجمهورية يوم 25 جويلية جملة من التدابير الاستثنائية تم بموجبها تعليق العمل النيابي واقالة الحكومة.

على المستوى الاجتماعي كان المناخ الاجتماعي على مدى السداسي الأول لسنة 2021 متوترا جدا اذ يكفي هنا أن نشير أن عدد الاحتجاجات الاجتماعية التي شهدتها هذه الفترة قد قارب 7000 احتجاج أي حوالي ضعف ما هو مسجّل خلال نفس الفترة من السنة الفارطة⁴. وبشكل عام يمكن القول أنّ الاحتقان الاجتماعي كان ناتجا بالأساس عن الأزمة الاقتصادية المستفحلة بالبلاد وعن التجاذبات السياسية والأزمة الحكومية وقد تعقّق كذلك نظرا للتعاطي الأمني مع الاحتجاجات الاجتماعية والافراط في استعمال القوة ضدّ المتظاهرين بلغ حدّ سحل قوات الأمن لأحد الشبان وتعريته في الطريق العام يوم 10 جوان 2021.

ثانيا: تحولات الأسرة التونسية في ظل الجائحة

قد تكون أوجه تأثر مختلف المؤسسات الاجتماعية وخاصة الأسرة بالجائحة كثيرة وهو أمر طبيعي بالنظر لانعكاساتها الاقتصادية، أما في السياق التونسي فإنّ الأمر قد يكون أكثر عمقا نظرا لخصوصية المرحلة التي حلت فيها الجائحة اذ يبدو أنّ ما عاشته الأسرة خلال العشر سنوات الأخيرة من تراجع في مداخيلها وتقهر في مقدراتها الشرائية وتزايد في احتياجاتها قد أثر بشكل واضح في قدرتها على مجابهة الجائحة هذا بالإضافة الى ما ميّز أداء مؤسسات الدولة من ارتباك وتخبّط وارتجالية.

1. الأسرة في مواجهة الفيروس: حجم الإصابات وكيفية التعامل مع الوباء

بلغ عدد المصابين بالفيروس الى حدود يوم 25 جويلية 2021، تاريخ انتهاء أعمالنا الميدانية، 575002 مصاب في حين بلغ عدد الوفيات بسبب الوباء خلال نفس الفترة 18968 وفاة. ولئن رأى البعض أن هذه الأرقام المأخوذة عن وزارة الصحة يمكن أن تكون أكبر نظرا لضعف عدد التحاليل المنجزة وكذلك لانتشار ممارسات التداوي خارج المسالك الرسمية و إخفاء المرض لتفادي التنقّر، فإنّ الأهم بالنسبة لنا هو أنّ الجائحة، وان كانت قد مسّت تقريبا كل الفئات، فإنّ تأثيرها كان أكبر على الفئات الأقلّ حظا أو الأكثر هشاشة على نحو ما بيّنته عديد التقارير والدراسات. أما بالنسبة للعيّنة المدروسة في إطار هذا العمل فإنّ الأمر لا يختلف كثيرا حيث أن نسبة الأسر التي أصيب أحد أفرادها بالفيروس قد بلغت 44.3% من مجموع الأسر المدروسة (623 من مجموع 1406) وهي نسبة منتظرة بالنظر الى عدّة عوامل منها خاصة درجة التعرّض للخطر التي ترتفع مع ارتفاع مؤشر الهشاشة بما يجعل إمكانية الإصابة بالعدوى تتغير من فرد الى آخر داخل الأسرة نفسها أي حسب الحالة الصحية والعمر ولكن كذلك حسب حجم

³ للتعمق أنظر: سيرين الغنوشي، جائحة كوفيد 19 في تونس: السياسة، السياسات العامة، والتحرّكات الاحتجاجية قراءة في أحداث السنة الأولى من الجائحة (مارس 2020 – مارس 2021)، المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. تونس 2021
⁴ المرصد الاجتماعي التونسي. نشرية السداسي الأول 2021. المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. 2021

التعرّض للخطر. فإذا كان من الواضح وفق الإحصائيات الرسمية أن كبار السن وأصحاب الأمراض المزمنة يشكلون الفئة العمرية الأكثر قابلية للعدوى والأكثر تأثراً بالفيروس، فإنّ العمل الميداني يبيّن أن الفئة الاجتماعية الأكثر إصابة بالوباء تتكون أساساً من الأزواج والزوجات والآباء والأمهات بما يعادل نصف عدد الإصابات المسجّلة بالنسبة لمجموع العينة.

يتراوح التعاطي مع الوباء في الأسر التونسية بين الهلع والخوف الشديد والحذر واللامبالاة وهي طرق تختلف باختلاف وضعيات الأشخاص والأسر بالتأكيد، ولكنها تختلف كذلك على نحو ما رأينا من خلال العمل الميداني، حسب المرحلة والسياق. لقد تعاملت النسبة الأكبر من الأسر (43%) مع الوباء بكثير من الرعب والهلع وهي مسألة طبيعية حسب المستجوبين بالنظر الى غياب المعلومة في مرحلة أولى ثم الى توفرها من مصادر مختلفة وأحياناً بأشكال متضاربة في مرحلة ثانية بالإضافة الى ارتباك مؤسسات الدولة وضعف البنية التحتية... إلخ. أما بالنسبة لمن ارتأت من الأسر تجاهل الوباء والتعامل مع ما يشكله من مخاطر بلامبالاة ونسبتها 30.3% فإنّ السبب الرئيسي لذلك الموقف هو في الغالب اقتصادي إذ يبدو أنّ عدداً كبيراً من أرباب وربات الأسر بشكل خاص ولكن كذلك العديد من الشباب الأعزب والشابات العزباوات قد اضطرّوا الى اتخاذ موقف اللامبالي حتى يتمكنوا من استئناف حياتهم التي تعطلت بسبب الوباء.

2. تأزم أوضاع الأسر، تقهقر المداخل العائلية وتوسع دوائر الهشاشة

لا شك أنّ انعدام المداخل القارة بالنسبة للأسرة يمثل عنصر تأزم كبير وخطراً جدّياً يهدّد تماسكها وديمومتها مع العلم وأنّ هذا النوع من الأسر يمثل 30% من مجموع الأسر المعنية. هذه الأسر التي تعيش أساساً من خلال تعاطيها بشكل يومي أو بصفة عرضية لأنشطة اقتصادية موازية كانت أكثر الفئات تأثراً بالجائحة وخاصة أثناء فترات الحجر الصحي الشامل أو الجزئي فقلّت مداخلها وانعدمت أحياناً. أما بالنسبة للأسر التي تحقق مداخل قارة ضعيفة ودون الأجر الأدنى الصناعي المضمون بالنسبة لـ 15% وهي بين 400 و800 د بالنسبة لـ 19.2% من المستجوبين فإنها تمرّ في سياق هذه الجائحة بصعوبات مالية كبيرة يعود بعضها الى ارتفاع أسعار أغلب السلع وزيادة نسق استهلاك العديد من المواد الصحية بشكل خاص سواء لمجابهة الوباء أو للتوقّي منه. هذه الصعوبات وغيرها لا تبدو ذات تأثير على الأسر الأكثر حظاً التي، وإن كانت لا تمثل في كل الحالات أكثر من 25% من مجموع الأسر المعنية بالدراسة، يبدو أنّها تتكون أساساً من فئة الموظفين والكوادر وأصحاب بعض المشاريع الخاصة الذين تواصلت مداخلهم بشكل عادي بل واستفادوا من عديد التسهيلات المالية مقارنة بالفئات غير المحظوظة.

لقد كان لتقهقر المداخل العائلية تأثير واضح على حياة الأسر وخاصة بالنسبة للفئات غير المحظوظة التي بلغ الأمر ببعضها الى عدم القدرة على تأمين مستلزمات الحياة الأساسية من مأكّل أو ملبس أو مسكن. لقد بيّنت الإحصائيات أن عديد الأسر قد اضطرّرت الى تأجيل سداد معالم الكراء وفواتير الكهرباء والغاز والماء الصالح للشرب بل إنّ البعض منها لم يكن قادراً عديد المرّات حتّى على تأمين الأكل لنفسه أو لأسرته خلال فترات الحجر الصحي الشامل وهو أمر لا نجده فقط في بعض المناطق الريفية الحدودية كتاجروين (28.3%) أو قلعة سنان (15.7%) بولاية الكاف بل وكذلك ببعض المدن بالعاصمة كحمام الأنف (21%) أو المناطق القريبة من المدن الكبرى كتاكلسة بولاية نابل (18.7%). أما المناطق التي لم تكن فيها نسبة من لم يجد ما يأكل أو ما يقدم لعائلته خلال فترات الحجر الصحي مرتفعة فيبدو أنّها استفادت بالأساس من موروث تضامني قوي في بعض الجهات كدوز الجنوبية مثلاً أو غمراسن أو تطاوين.

يضاف الى ما سبق أنّ تعاطي نسبة هامة من المستجوبين لأنشطة مهنية عرضية يتركّز أغلبها في القطاع غير المنظّم قد جعلها عرضة لتأثيرات الجائحة السلبية، بل إنّ 9% منهم قد اضطرّوا الى تغيير أنشطتهم المهنية سواء بسبب تراجع المدخول أو غلق المؤسسة أو الطرد التعسفي أو الخوف من المرض أو غيرها من الأسباب.

3. التضامات العائلية: الأسرة مركزا للتوترات بين الأفراد وملاذهم الأخير

على غرار بقية المؤسسات الاجتماعية كان تأثير الجائحة على الأسرة كبيرا وهو أمر منتظر باعتبار الدور الهام الذي تلعبه هذه المؤسسة منذ القدم في حياة الأفراد. أما ما تختلف فيه الأسرة عن بقية المؤسسات في هذا الإطار فيتعلق حسب ما تبيننا من خلال العمل الميداني بطبيعة التأثيرات نفسها وتحديدًا في مراوحتها بين السلبى والديجابى.

تتمثل الانعكاسات السلبية للجائحة أساسا في تراجع مردودية عديد الأنشطة الاقتصادية وتوقف البعض منها وتقهر المداخل الأسرية بما أثر على الوضع المادى للأسر حيث تراوحت إجابات المستجوبين عند تقييمهم لمدى تأثير الجائحة على الوضع المادى لأسرهم بين ساء كثيرا (38.58%) وساء (26.27%) وبقي مستقرا (34.43%). كما كانت الجائحة مصدرا لتنامي التوترات العائلية وخاصة بين الأزواج حيث سجّل 6.2% من المستجوبين المتزوجين أن علاقاتهم مع الشريك الزوجي قد ساءت كثيرا⁵. هذا وقد شملت بعض الانعكاسات السلبية على الأسرة كذلك العلاقة بين الآباء والأبناء وحتى بين الأبناء أنفسهم بما يحيل بالأساس الى ما يمكن أن يسببه ضيق الفضاءات الأسرية بالنسبة لغالبية الأسر من توتر بين أفرادها.

أما الانعكاسات الإيجابية فتتمثل بالأساس فيما تم احيائه في إطار مجابهة الجائحة من مظاهر تآزر أسري. فرغم تواضع إمكانيات الأسر التونسية بشكل عام، يرى حوالي ¼ المستجوبين ممن أصيبوا أو أصيب أحد أفراد أسرهم بالكوفيد أنّ درجة تضامن الأسر مع المصابين كانت كبيرة، وهو أمر يمكن أن يحيلنا في نفس الوقت الى ما تمّ احيائه في سياق الجائحة من قيم تضامن تقليدية مثلت خلفية ثقافية جامعة للفئات الاجتماعية المختلفة ولكن كذلك الى فشل منظومة دعم الأسر والأفراد وضعف نجاعة المؤسسات الرسمية التي أوكلت لها هذه المهام أثناء الجائحة سواء على المستوى المحلى أو الوطنى. فعندما نعرف أنّ نسبة 70% تقريبا من المصابين بالبواباء من الأسر المعنية بالدراسة قد تلقوا علاجهم في المنزل وأنّ هذه النسبة يمكن أن تصل الى ما فوق 91% بولاية نابل وهي لا تقل عن 49% بولاية تطاوين، يصبح من الطبيعى جدًا أن نقول أنّ الأسرة لا تزال تمثل الملاذ الأخير بالنسبة للأفراد وهي لا تزال تلعب الدور الأهم مقارنة ببقية المؤسسات وخاصة عندما تغيب الدولة أو تفقد نجاعتها في مواجهة مثل هذه المشاكل.

ثالثا: في سياق الجائحة: أزمة الادمج الاجتماعي وتطور النوايا الهجرية

لئن تبدو بعض آثار الجائحة جليّة وخاصة في بعدها الاقتصادى، فإنّ آثار أخرى كثيرة، وخاصة منها ما يتعلق بالبعد الاجتماعى، لا تزال قيد التشكّل وهي تحتاج تبعًا لذلك الى وقت قد يمتد لسنوات حتى تظهر للعيان وتكون قابلة للتحويل، على أنّ ذلك لا يعنى أبدا أن البحث السوسىولوجى غير قادر على استقراء ما قد ينشأ عن تطوّر بعض المؤشرات من تغييرات يمكن أن تمس حياة الأفراد والمجموعات في مختلف أبعادها. فقد بيّنت قراءتنا لواقع الأسر وتطلعات أفرادها في سياق الجائحة أنّ هذه الأخيرة ساهمت بأشكال متعدّدة في تعميق أزمة الادمج الاجتماعى كما ساهمت بوضوح في تسريع نسق تحويل المشاريع الهجرية الى مشاريع أسريّة يتم فيها استثمار جهود فاعلين متعدّدين.

1. أزمة الادمج الاجتماعى وتنامي العوامل الطاردة

يتنزّل حديثنا عن أزمة الادمج الاجتماعى (Inclusion sociale) في إطار تحليلنا لمظاهر الانفتاح الاجتماعى وقدرة المؤسسات والهيكل على دمج الأفراد بغض النظر عن اختلافاتهم وتنوع احتياجاتهم. هذا ما سيحدّد مستويات الرضا الفردى والجماعى وكذلك درجة انخراط المواطنين في الحياة العامة وهو ما سيكشف كذلك مدى توقّر عوامل الادمج أو عوامل الاقصاء.

⁵ يشير تقرير المنتدى التونسى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية حول العنف لسنة 2020 أن 25% من حالات العنف المسجلة في تونس خلال التسعة أشهر الأولى من السنة قد حصلت داخل المسكن العائلى. ص14

1-1. مستويات الرضا الفردي

ينعكس مستوى رضا الفرد على واقعه بشكل مباشر على تمثلاته لذاته ولعلاقته بمكونات ذلك الواقع من مؤسسات رسمية وغير رسمية ومن أفراد وهياكل جماعية ومبادرات، وهو أيضا يتأثر بها ويتحدّد قسم هام من مختلف مواقفه وآرائه وتطلّعاته وفقها. فكيف ستكون مستويات رضا المستجوبين الممثلين في هذه الدراسة؟ هذا ما يجيبنا عليه أحد أقسام الاستبيان الذي تضمّن 20 سؤالاً وفق سلم ليكارت (Echelle de Likert) والتي سمحت لنا ببلوغ النتائج التالية:

1) مستويات الرضا تجاه الأسرة

عبر حوالي 75% من أفراد العينة عن رضاهم عن ظروف إقامتهم مع أسرهم (51.2% راض و19.8% راض جدا) وكذلك عن مناحات العلاقات السائدة بين الأفراد (56.7% و22.3%)، ولكن المسألة الاقتصادية تبدو غير مرضية بالنسبة لحوالي 40% منهم (16.8% غير راض بالمرّة 21%).

2) مستويات الرضا تجاه المحيط الاجتماعي

تعتبر نسبة الرضا على ظروف إقامة المستجوبين في بلدياتهم وفي جهاتهم مرضية بالنسبة لحوالي 57% منهم وهي غير مرضية بالنسبة لـ 33% منهم في حين ارتأى البقية (10%) اتخاذ موقف وسط بين الرضا وعدم الرضا مع اختلافات بسيطة بين الجهات المعنية بالدراسة حيث نلاحظ أن النسب الأعلى لعدم الرضا مسجلة أساسا بجهة تاجروين (58.5%) وفريانة (55.4%) وقلعة سنان (52.8%).

3) مستويات الرضا تجاه الظروف العامة للبلاد

تبلغ نسبة المستجوبين الذين عبروا عن عدم رضاهم بالظروف الحالية التي يقيمون وفقها بالبلاد حوالي 47.8% مع العلم وأن ثلثي هؤلاء تقريبا يعتبرونها غير مرضية بالمرّة أما مستوى رضاهم عن الوضع الاجتماعي فهو سلبي بنسبة 82% تماما كما هو الحال بالنسبة للوضع السياسي (84% غير مرضي) وبشكل أكثر سلبية بالنسبة للوضع الاقتصادي والوضع الصحي اللذان حظيا بأعلى مؤشر عدم الرضا التام (92%).

2-1. ضعف الانخراط في الحياة العامة

تتحدّد مستويات الانخراط الاجتماعي، بالإضافة الى درجة رضا الأفراد على واقعهم، بدرجة انخراطهم في الحياة العامة وقدرتهم على اختيار مساراتهم الفردية والجماعية ذلك أنّ من شروط المجتمع الدامج هو أن يجد فيه الجميع، أفرادا ومجموعات، الفرصة ليعبروا عن ذواتهم دون تمييز أو وصم أو اقصاء.

1) درجة الانخراط في الحياة السياسية

بالإضافة الى ما لاحظنا من سيطرة مشاعر الخيبة والاحباط والحيرة تجاه المشهد السياسي ممّا دفع نسبة هامة من المستجوبين الى رفض الإجابة عن هذا السؤال (6.5%)، يبدو أنّ الجائحة قد ساهمت في إعادة ترتيب التونسي لأولوياته لتكون السياسة وفق ذلك آخر اهتماماته ولتكون نسبة المنخرطين في الأحزاب السياسية مثلا في حدود 0.6% مع العلم وأن هذه النسبة لا تختلف كثيرا حسب متغيرات العمر والجنس والانتماء الجغرافي لأنّها ضعيفة جدا ولا تتجاوز 2% في كل الأحوال⁶.

2) درجة الانخراط في الحياة الجمعياتية

لا تختلف نسبة انخراط المستجوبين في الجمعيات عن النسبة المسجلة بخصوص الانخراط في الأحزاب السياسية حيث تبين المعطيات الميدانية أن النسبة العامة لا تتجاوز 1.8% وهي تساوي صفر بالنسبة لجهات تاكلستة بولاية نابل وتاجروين وقلعة سنان بولاية الكاف وسوق الأحد ودوز الجنوبية بولاية قبلي وغمراسن بولاية تطاوين ولكنها تبلغ 5.5% بجهة حمام الأنف بولاية بنعروس التي يبدو أنّها تستفيد من موقعها قرب العاصمة وديناميكية المجتمع المدني بها.

3) التطوُّع خلال الجائحة

⁶ يبيّن مسح المعهد الوطني للإحصاء المشار اليه سابقا أنّ نسبة التونسيين الذين لم ينخرطوا في الحياة السياسية والمدنية (حزب سياسي، نقابة مهنية أو جمعية أو ناد رياضي) سنة 2017 هي في حدود 3% مع العلم وأنه كانت في حدود 6% سنة 2014. المرجع السابق. ص4

رغم أن الجائحة قد ساهمت في تحسين نسبة الاقبال على الأنشطة التطوعية في مختلف أنحاء البلاد التي بلغت 12.6%، نلاحظ أن الجهات الساحلية ظلت الأولى من حيث النسب المسجلة إذ يبدو أن ارثها في هذا المجال قد ساعدها على تحقيق نسب أعلى من بقية الجهات⁷. ففي حين سجّلت مناطق فريانة وسوق الأحد ودوز الجنوبية وتطاوين الجنوبية وغمراسن أقل النسب نلاحظ أن مناطق قصور الساف وحمّام الأنف وتاكلسة وبوعرقوب قد سجلت أعلاها.

2. الإرث الأسري في مجال الهجرة وبداية تكوّن المشاريع الهجرية

قد يكون من الصعب الحديث عن الآثار الاجتماعية للجائحة لأنّ الكثير منها لا يزال قيد التشكّل، بل إنّ بعضها قد يتطلّب ظهوره عدّة سنوات أخرى ولذلك فإنّ حديثنا عن تطوّر النوايا الهجرية في ظلّ الجائحة لا يعني أنّنا نروم تشخيص واقع لم يكتمل بعدُ بقدر ماهي محاولة لاستشراف مستقبل قد تتحدّد بعض ملامحه لاحقاً وقد يكون البعض منها قد انطلق في التشكل منذ الآن. هذا ما أمكن لنا تبينه عندما حاولنا تتبّع نشأة المشروع الهجري وتطوّره وهو ما سنعمل على توضيحه أكثر عبر البحث في الإرث الهجري للأفراد والأسر وكيفية مساهمته في نشأة القرار الهجري على مستوى الفرد وكذلك على مستوى الأسرة.

1-2. حركية الأفراد والأسر من خلال التجارب السابقة

عرف المجتمع التونسي على مدى تاريخه موجات هجرية متعاقبة ومثّل الحراك الجغرافي أو الحركية (Mobilité) في غالب الأحيان أحد مكونات المشهد الاجتماعي العام⁸. وإذا كان من الواضح منذ عدّة سنوات أن الهجرة قد اتخذت أبعاداً أخرى وعرفت تحولات كبيرة كما ونوعاً نظراً لعدد العوامل الداخلية والخارجية فإنّ مؤشرات عديدة تدلّ على أن الجائحة أثرت بدورها على هذه الظاهرة، على أن ذلك لا يمكن أن ينفي في تقديرنا الدور الذي يمكن أن تلعبه التجارب الهجرية السابقة داخليا وخارجيا في تحديد موقف الأفراد والأسر من الهجرة ونوعية المشاريع الهجرية التي يمكن أن يبتدعها بشكل فردي أو جماعي.

1 حركية الأفراد حسب المناطق

يسمح الكشف عن مستوى حركية الأفراد وحجم تنقلاتهم بين المناطق أو المدن أو الجهات في الداخل والخارج عن الأثر التراكمي الذي يمكن أن يكون لتجارب الهجرة والتنقل السابقة على مستوى القرار الهجري الفردي أو الجماعي في فترات لاحقة. وبشكل عام يمكن القول إن تجارب المستجوبين في هذا الإطار تبدو مهمة إذ تبلغ نسبة المستجوبين الذين انتقلوا للعيش في معتمدية غير معتمديتهم الأصلية 28.6% أما من انتقلوا للعيش في ولايات غير ولاياتهم الأصلية فإن نسبتهم من المجموع قد بلغت 38.4% في حين بلغت نسبة من سبق له أن هاجر خارج البلاد 12.7%.

2 الحراك الداخلي والهجرة الخارجية وأسس التقسيم الجندي

أمكن لنا من خلال العمل الميداني أن نلاحظ أن التقسيم الجندي للحراك الداخلي يميل نحو المساواة عكس الهجرة الخارجية التي تبدو في الأصل ظاهرة ذكورية بامتياز إذ لا تتجاوز نسبة النساء اللاتي يمتلكن تجارب هجرية سابقة خارج البلاد 5.6% أي تقريبا ¼ ما هو ملاحظ عند الرجال. وفي حين تذكرنا النسبة المسجلة فيما يتعلّق بالحراك الداخلي بحركية الأسر عموماً في إطار بحثها عن مواطن شغل أو عن خدمات عمومية أفضل (تعليم، صحة، نقل، الخ)، تحيلنا النسبة المسجلة فيما يتعلّق بالهجرة الخارجية الى حركية الأفراد الذكور تحديداً بحثاً عن عمل بالدرجة الأولى. هذا ما

⁷ يبيّن تقرير البنك الدولي المنجز سنة 2014 حول الشباب أن الجهات الساحلية قد احتكرت 72% من المتطوعين من الشباب في حين كان نصيب الجهات الداخلية 13.2% ومناطق الجنوب 14.2%. تقرير البنك الدولي والمرصد الوطني للشباب. إزالة الحواجز من أجل اشراك الشباب تونس 2014.

⁸ Hassan Boubakri et Swanie Potot, "Migrations et révolution en Tunisie", Revue Tunisienne des Sciences Sociales (RTSS), n°141, 2013, pp.59-78

تبيته الأرقام المتعلقة بدواعي هذه التجارب الهجرية السابقة باعتبارها بالأساس هجرة من أجل العمل بالنسبة للرجال (77.9%) ثم الدراسة (8.6%)، في حين تتوزع بين الالتحاق بالعائلة (43.9%) ثم العمل (29.3%) ثم الدراسة (14.6%) بالنسبة للنساء.

3 الحراك الداخلي والهجرة الخارجية وأسس التقسيم الجيلي

تبلغ نسبة المستجوبين الذين يملكون تجارب حراك داخلي وبين المعتمديات تحديدا حوالي 28% وتتراوح بين 26.2% لدى أقل الفئات تجارب وهي فئة الشباب (18-29 سنة) و32% لدى أكثر الفئات تجارب وهي فئة الكهول (40 - 49 سنة). أما بالنسبة للحراك بين الولايات فإن المعدل العام يبلغ 38.7% وتتراوح حسب الفئات بين 32.6% النسبة للفئة العمرية 60 سنة فأكثر و45.1% بالنسبة للفئة العمرية 30-39 سنة. وفي حين تحيلنا التجارب السابقة المسجلة لدى الشباب الأقل سناً إلى الديناميات الأسرية التي تندرج ضمنها أغلب التجارب الشبابية، نسجل أن القسم الأكبر من تجارب الفئات الأكبر سناً إنما حصلت في إطار ديناميات فردية سواء بحثاً عن شغل أو للدراسة في غالب الأحوال.

2-2 شبكات الهجرة العائلية وتأثيرها على المشروع الهجري

لئن حافظت الأسرة بشكل عام، رغم ما شملها من تغيير، على مكانة أساسية في حياة الأفراد، فإن ذلك راجع بالأساس إلى عديد الأسباب لعل أهمها اضطرار الأسرة نفسها إلى تعويض الدولة بعد انسحابها التدريجي من مختلف المجالات الاجتماعية وخاصة فيما يتعلق بالخدمات الموجهة للفرد بشكل عام طفلاً كان أو شاباً أو كهلاً أو شيخاً. واعتباراً لما سبق، جاء اهتمامنا بشبكات الهجرة العائلية حتى نفهم الإطار العام الذي يمكن أن تنشأ فيه المشاريع الهجرية للمستجوبين ولأسرهم وهنا يمكن القول أن الهجرة تمس تقريباً أغلب الأسر الممثلة في الدراسة مع بعض الاختلاف المسجل بين المناطق إذ أن نسبة الأسر التي تضم فرداً أو أكثر من المهاجرين بالخارج تفوق 90% بقصور الساف وقلعة سنان و80% بحمام الأنف وغمراسن وهي مناطق معروفة بأهمية ظاهرة الهجرة فيها عكس مناطق دوز وتطاوين وفريانة التي، وإن اشتهرت بأهمية اقتصادها الحدودي وانخراطها في الشبكات الاقتصادية العابرة للحدود، فإنها لا تعتبر الهجرة مصدراً للربح ولا تثق فيها كمجال استثمار عائلي بقدر ثقتها في التهريب مثلاً. هذا ما يمكن تبيته من خلال المقارنة بين المناطق فيما يتعلق بنوايا الهجرة اليوم إذ تحتل مناطق قصور الساف وقلعة سنان وحمام الأنف وغمراسن المرتبة الأولى تماماً كما هو الحال بالنسبة لشبكات الهجرة العائلية وهو ما يؤكد أهمية هذه الأخيرة في ولادة المشروع الهجري وتطوره.

هكذا، لا يبدو غريباً أن يُولد المشروع الهجري على نحو ما تبين لنا خلال العمل الميداني في الغالب داخل المجال الأسري نفسه، بصفة مباشرة كأن يكون نتيجة تقييم جماعي للواقع العام وللحظوظ الممكنة بالنسبة للفرد المعني ولكن كذلك بالنسبة للأسرة، أو بصفة غير مباشرة من خلال ما قد يجوز اعتباره "تنشئة على الهجرة" (Socialisation à l'émigration) أي ذلك الحضور المتواصل للمهاجر في الإطار الأسري والتداول المتواصل لمواضيع تتعلق به أو بظروف إقامته في بلد المهجر. ويزداد تأثير هذه التنشئة عندما ينقل المهاجر تمثلاً إيجابياً لبلد الهجرة ويوحى بأن وضعيته أفضل من وضعيته أقرابه بتونس.

3 تطور النوايا الهجرية في ظل الجائحة

اتضح من خلال العناصر السابقة أن الهجرة ليست بالظاهرة الجديدة على الأسر التونسية بل ربما تكون من أكثر المجالات التي استثمرت فيها العديد منها على مرّ الأجيال مجهوداتها وثرواتها وعوّلت عليها لتحقيق أهدافها، ولكن ذلك لا يعني أبداً أن نوايا الهجرة لا تتغير بتغير السياقات والظروف والامكانيات.

1-3 سؤال الرحيل أو الاستعدادات الكامنة للهجرة

يتضح من خلال المعطيات الميدانية أن الهجرة أصبحت هاجساً أساسياً بالنسبة لفئات اجتماعية عديدة وأن نوايا الهجرة قد بلغت حالياً أعلى مستوياتها حيث عبّر 25.3% من المستجوبين عن تفكيرهم الدائم في الهجرة في حين لا يزال 14.5% محلّ تردّد بين أن يهاجروا أو أن يبقوا في البلاد. وبالعودة إلى أسباب ارتفاع مؤشر الرغبة في الهجرة يتضح أن بعضها هيكلية مرتبط بفشل المنوال التنموي المنتهج بالبلاد منذ الاستقلال وبنمط توزيع للثروة يقوم على الحيف والتمييز بين الفئات والجهات والأجيال، وبعضها

الآخر ظرفي مرتبط بسياق الجائحة الذي زاده التوتر السياسي وشيخ الإفلاس الاقتصادي وارتباك أداء مؤسسات الدولة تآزما.

من الواضح إذا أنّ مختلف العوامل السابقة ساهمت في خلق مناخ من اليأس وانعدام الثقة في المستقبل ودفعت بالعديد من التونسيين الى التفكير في الهجرة، بل يبدو أنّ الرحيل صار يُغري الجميع نساء ورجالا على حدّ السواء. تفوق نسبة الذكور ممن يفكرون باستمرار في الهجرة المعدّل الملاحظ على مستوى الجنسين وهي لا تقل في كل الحالات عن 31% أما بالنسبة للإناث فإنها تقارب 21%.

بالنسبة للعمر يبدو أنّ التفكير في الهجرة لا يقتصر على فئة عمرية دون أخرى لأنّه يمثل اتجاها عاما يشترك فيه عدد كبير من التونسيين بغض النظر عن أعمارهم. أما ما يجب الانتباه اليه بشكل خاص فيتعلّق أساسا بفئة الشباب التي تبلغ نسبة من يفكرون منهم في الهجرة بشكل دائم حوالي 47% بالنسبة للفئة العمرية 18-29 سنة و35% بالنسبة للفئة العمرية 30-39 سنة. وهو ما يعني أنّ الرغبة في الهجرة قد تحوّلت من اتجاه فردي قد ينتج عن مشاكل ظرفية أو حالة يأس عرضيّة الى ما يشبه القرار الجماعي التي يتم اتخاذه بطريقة غير مباشرة عن طريق مجموعة من الفاعلين لا يتفقون بالضرورة حول أسباب الأزمة ولكنهم يتفقون تماما حول غياب الحلول.

قد يبدو ارتفاع مؤشر الرغبة في الهجرة اذا مرتبط بأسباب هيكلية عميقة ولكن مقارنة المؤشرات المتحصّل عليها في هذه الدراسة بأخرى سابقة من شأنه أن يؤكد أن الجائحة ساهمت بدورها في هذا الارتفاع ويكفي هنا أن نشير الى أن نسبة الشباب من البالغين من العمر 18-34 سنة ممن يفكرون باستمرار في الهجرة قبل أقل من سنتين وفق ما توصلت له دراسة منظمة "انترناشيونال ألرت" لم تكن تتجاوز 35% وأن نسبة من لا يفكرون في الهجرة سنة 2016 وفق دراسة المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية قد بلغت 45% في حين أنها لا تتجاوز 31%⁹

2-3. جدليّة العوامل المحفّزة - العوامل المنفّرة

لقد بيّن لنا البحث الميداني أنّ التفكير في الهجرة لا يتأتّى من فراغ وأن قرار المغادرة ليس بالقرار الاعتيادي وأنّ الهجرة ليست بالحدث العرضي في حياة الفرد بل هي خيارات تجد ما يدفع الفاعل لاتخاذها دون غيرها، أمّا عدم التفكير حاليًا في الهجرة فأنه لا يعني عدم التفكير في شأنها سابقا ولا كذلك عدم الاستعداد للتفكير فيها مستقبلا. وبشكل عام يمكن ترتيب العوامل المحفّزة على الهجرة كما يلي:

(1) العامل الاقتصادي

يبدو مهما جدّا في تحفيز الأفراد على مغادرة البلاد مع العلم وأنّ 70% ممّن يعتزمون الهجرة يعتبرون أنّ الوضع الاقتصادي ببلد الاستقبال أفضل من الوضع ببلدهم.

(2) العامل النفسي

ويرتبط بتصوّرات الأفراد وتمثلاتهم لبلدهم وبلد الاستقبال ومستويات التفاؤل بخصوص المستقبل اذ نلاحظ في هذ الإطار أنّ حوالي ثلثي المستجوبين المعنيّين بقرار المغادرة يرون أن مستقبلهم أكثر ضمانا خارج تونس و57.8% منهم يرون أن مستقبل أطفالهم سيكون أفضل عندما يلتحقون بالخارج في حين يقرّ 52% منهم بأنّ يسوا تماما من حال البلاد وفقدوا كل أمل في تغيير الأمور نحو الأفضل.

(3) واقع الحزّيات

⁹محمد علي بن زينة وألفة لموم ومريم عبد الباقي (اشراف)، شباب في الهوامش. تمثلت المخاطر والسياسة والدين في تطاوين الشمالية والقصرين الشمالية ودوار هيشير. انتناشيونال أليرت. تونس نوفمبر 2020
عبد الستار السحباني، الشباب والهجرة غير النظامية في تونس دراسة ميدانية للتمثلات الاجتماعية والممارسات والانتظارات. المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. تونس 2016

الذي يحتل مركزا وسطا بين أهمّ العوامل وأقلها أهمية حيث يعتبر حوالي نصف المعنيين بقرار المغادرة أن واقع الحريات سيكون أفضل ببلد المهجر كما يعتبر 45% منهم أن أحد العوامل التي تشجعهم على الهجرة هو تطلّعهم لواقع أمني أفضل.

4 العامل العائلي

حيث يعتبر 36.5% أن رغبتهم في التخلّص من ضغط العائلة مثلت عاملا لتشجيعهم على الهجرة

5 العامل الذاتي

ويتمثل خاصة في الرغبة في تقليد الآخرين أو إعادة إنتاج بعض التجارب العائلية الناجحة أو التنافس مع الأقارب الخ وهي كلها عوامل تبدو مهمة في نظر 30% من المستجوبين.

هكذا نلاحظ أن عوامل عديدة ساهمت في بلورة مشروع هجري لدى عدد هام من المستجوبين، عوامل تبدو متعدّدة وجاسمة في أغلبها وتحيل في بعض أوجهها الى سياق الجائحة وفي بعضها الآخر الى ما هو أعمق بكثير. أمّا بالنسبة للعوامل المنقّرة على الهجرة فإنه يمكن تقديمها وفق نفس ترتيب المستجوبين كما يلي:

1 العامل العائلي

ويُعتبر ذا أهمية قصوى بالنسبة لقسم هام من المستجوبين ممن لا يفكّرون حاليا في الهجرة وخاصة عندما يكون المستجوب الكافل الوحيد لعائلته (30%) أو لوالديه (10%) أو لأحد الأشخاص من ذوي الإعاقة أو عند رفض العائلة قرار الهجرة (14%).

2 العامل الاقتصادي

ويلعب دورا مزدوجا من أجل دفع الأفراد الى عدم التفكير في الهجرة. فهو أمّا سلبي أي أنه يعبر عن انعدام الامكانيات المادية للسفر ويعني 16.6% وأمّا إيجابي أي أن يقنع الفاعلين بأنهم ليسوا في حاجة الى الهجرة طالما أنّ وضعهم المادي مُرضٍ بشكل عام (11.8%).

3 العامل المهني

علي اعتبار وأن الهدف الأول من الهجرة في نظر هؤلاء هو الشغل فإنّ من يشغل عليه ألاّ يفكّر في الهجرة في نظرهم. ويعني هذا العامل 10.4%.

4 عامل الواقعيّة (Réalisme)

ويتعلّق أساسا بمسألة الكفاءة للهجرة أي بمدى اكتساب الفرد أو عدم اكتسابه لمهارات يمكن أن يتم توظيفها في الخارج فيكون قرار الهجرة عقلانيا موضوعيا وواقعيّا. هذا ما نراه مثلا فيمن لا يرى نفسه مؤهلا للهجرة لأنّه لا يحسن اللغات الأجنبية مثلا.

5 العامل النفسي

ويتعلّق بمستوى رضا الفرد عن واقعه ومدى تفاعله بالمستقبل وهو عامل لا يبدو ذا أهمية كبرى نظرا لأنّ نسبة المستجوبين ممن لا يرغبون في الهجرة لهذا السبب لا تتجاوز 4%.

3-3 بلد الوجهة ومستويات التقدم في انجاز المشروع الهجري

يكشف التزايد الكبير لنوايا الهجرة على نحو ما رأينا سابقا أنّ سؤال الرحيل أصبح سؤالا مركزيا في حياة العديد من التونسيين وأنّ الرغبة في الهجرة باتت تعني الكثير ممّن لم تعد البلاد تتسع لطموحاتهم، أو هم يعتبرونها كذلك على الأقل. فما هي ملامح العالم الذي ينشدون؟ وماهي الوسائل المزمع اعتمادها لتحقيق مشاريعهم الهجرية؟

1 بلد الوجهة

تبين قائمة بلدان الوجهة أن ظاهرة الهجرة حافظت على العديد من خصائصها¹⁰ رغم أن مؤشرات تغيرها كثيرة. وبشكل عام يمكن تلخيص جملة ملاحظاتنا فيما يتعلّق ببلدان الوجهة في ثلاث نقاط:

¹⁰ تبين دراسة المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية للهجرة غير النظامية سنة 2016 أنّ الوجهة الأولى بالنسبة للشباب هي فرنسا (19%) ثم إيطاليا (13.2%) ثم ألمانيا (12.8%) ثم كندا (11.7%) ثم بلدان الخليج (ثم أمريكا... الخ. للتعمّق أنظر عبد الستار

أ). حافظت فرنسا على الصدارة في ترتيب بلدان الوجهة وكذلك إيطاليا التي حلت في المرتبة الثانية دون تغيير ويعود هذا بالأساس الى قدم علاقة التونسيين بهاذين البلدين تحديدا بالإضافة الى قرب المسافة الجغرافية وبشكل خاص نظرا لأهمية الشبكات العائلية هناك التي تجعل المهاجر أكثر راحة وقدرة على الاندماج هناك.

ب). حلت كندا في المرتبة الثالثة بـ13.5% قبل ألمانيا (12.7%)، كما حظيت الدول الاسكندنافية بأهمية تفوق ما أسنده المستجوبون لدول الخليج وهو ما يحيل في نظرنا الى تغيّر الأهداف من الهجرة وهوية المهاجرين. فالهدف من الهجرة لم يعد فقط الحصول على عمل كما أنّ الهجرة لم تعد تعني فقط اليد العاملة البسيطة بل أصبحت، وخاصة بالنسبة للراغبين في الهجرة الى كندا وألمانيا، تهم الفئات الأكثر كفاءة من مهندسين وأطباء وأعوان صحة وجامعيين.. الخ. كثير من طلبة هذه الاختصاصات صاروا ينخرطون في مشاريع هجرية قبل التخرج وكثير من الخريجين صاروا يقبلون بالقيام بالتكوين اللازم لتعزير فرص قبولهم هناك (اللغة الألمانية مثلا).

ج). بدأت بعض الوجهات الجديدة تظهر للعيان على غرار البلدان الاسكندنافية التي لم تكن تعني التونسيين تماما ولكن يبدو أن انفتاحهم على العالم الافتراضي والصورة المتداولة لهذه البلدان باعتبارها بلدانا ناجحة في كل المجالات قد ساهمت في تغيير وجهتهم، تماما كما هو الحال بالنسبة لتركيا التي تصوّر إعلاميا على أنها بلد الازدهار والتقدم.

2) مستويات التقدم في انجاز المشروع الهجري الوسائل المزمع اعتمادها

يمكن القول أنّ المهاجرين قد بلغوا مستويات متفاوتة في تنفيذ مشاريعهم وهي تنقسم اجمالا الى 3 أصناف:

- صنف أول يهتم المهاجرين المعنيين بمشاريع "الحرقة" حيث تبدا مشاريعهم الأكثر حسما ووضوحا وإصرارا والذين هم حاليا بصدد البحث عن سبيل لاجتياز المتوسط
 - صنف ثان يهتم المهاجرين الذين لم يبلغوا بعد مرحلة الحسم في تنفيذ مشاريعهم الهجرية خاصة وأن الجائحة كانت سببا في مزيد ارباكهم عبر حالة اللايقين والغموض التي عممتها في أوساطهم
 - صنف ثالث يبدو من خلاله أن الجائحة لم تغيّر شيئا في المشروع الهجري اذ يتواصل جمع مصاريف السفر أو اقناع الأسرة أو اعداد ملف التأشيرة أو تعلّم اللغة في انتظار تنفيذ المشروع
- أما بالنسبة للوسائل التي يعتمزم المهاجرون اعتمادها لتنفيذ مشاريعهم الهجرية فيمكن ترتيبها حسب مستوى الحسم والتأكيد الملاحظ في إجابات المستجوبين كما يلي:

أ). الاتصال بأحد مكاتب الهجرة للحصول على عقد عمل ويهم العدد الأكبر من المهاجرين الذي يبدو أنّهم على اطلاع بأسواق الشغل الدولية وياماكنيات التشغيل التي توفرها بعض مكاتب الهجرة في عديد البلدان. وتحيل هذه الوسيلة المستحدثة الى التحوّل في خصائص المهاجرين الذين لا تتحدد رغبتهم في الهجرة بالضرورة بأجرهم الذي يتحصلون عليه في بلدهم الأصلي أو قد يتحصلون عليه عند تحصلهم على موطن شغل، بل كذلك بما يمكن تحقيقه في هذه البلدان في صورة الالتحاق بها على غرار الأطباء وأعوان الصحة والمهندسين وعديد الاختصاصات الحرفية وغيرها.

ب). "الحرقة" وتمثل ثاني أكبر نسبة من المهاجرين الذين يبدو أنّ قرار الهجرة لديهم نهائي ولكن الإمكانيات التي يمكن أن تعفيهم المخاطر التي ستواجههم عند عبورهم البحر منعدمة مع العلم وأنّ كلفة الحرقة ما فتئت تتصاعد منذ سنوات وهي تصل أحيانا الى 5000 دينار. بعض هؤلاء يرون في المخاطرة نفسها مغامرة لا بد من خوضها حتى يسظّروا مستقبلهم بالشكل الذي يريدون

وبعضهم الآخر صارت الحرقة بالنسبة له تحديًا يوميًا يخوضه ضدّ الدولة وسلطانها الأمنية المراقبة للحدود.

ج. شراء عقد عمل عن طريق صديق أو قريب وهي طريقة يتم عبرها استثمار الشبكات العائلية والقرابية والجوارية بشكل يسمح لكلا الطرفين بالاستفادة من الآخر: التعويل على أحد الأقارب أو الأجوّار للحصول على عقد عمل بمقابل في كنف الثقة وبهامش خطر قليل من ناحية والتضامن مع أحد الأقارب أو الأجوّار لتحقيق مبتغاه ولكن بمقابل وليس بالمجان وفي كنف السرية حتى لا تتم مساءلته مع العلم وأن بعض المهاجرين المقيمين بالخارج لا يتعاطون أي نشاط مهني ويكتفون بما يتحصلون عليه من عمولات جزاء عقود الشغل التي يبيعونها للمهاجرين من معارفهم وأقربائهم.

د. التأشيرة وتعني بالأساس المهاجرين الذين يعوّلون على وضعهم المهني أو المادي أو علاقاتهم العائلية مع مهاجرين مقيمين للتحوّل الى الخارج وتسوية وضعيتهم بعد الوصول. هم في الغالب طلبة وتلاميذ وأحيانًا متقاعدین وموظفين وتجار ينقلون للخارج عبر تأشيرات لتقديم مطالب لجوء أو للتحوّل الى بلدان أخرى أقلّ تشدّدًا مع المهاجرين أو للعمل في أماكن معزولة وبعيدة عن الرقابة الأمنية.

هـ. السفر الى بلدان لا تستوجب تأشيرة دخول وهي عادة بلدان أوروبا الشرقية وتركيا التي تكون في الغالب محطة عبور نحو أوروبا الغربية كما تعني هذه الوسيلة بعض المهاجرين الذين ينتظرون استقرار ليبيّا للتقلل اليها والاستقرار هناك.

خاتمة واستنتاجات

حاولنا من خلال هذا العمل أن نفهم المسار الذي تمّ عبره عملية بناء المشروع الهجري وأن نستكشف أثر الجائحة على مستوى نشأة هذا المشروع وما قد يكون قد بلغه تنفيذه في الظروف الاستثنائية التي نجمت عنها من محطات. ولأنّ المشروع الهجري يمرّ بمسار طويل ومعقّد فقد ارتأينا ألاّ نكتفي بالسياقات الزمنية والصحية والاجتماعية والسياسية المباشرة أي التي أجري فيها البحث الميداني وأن يكون تناولنا أوسع بكثير وأشمل وهو ما مكّننا من الانتباه الى دور الأسرة كإطار لولادة المشروع الهجري ولرعايته وتطويره وتنفيذه.

لقد انتهى بحثنا الذي امتد على 7 ولايات ممثلة لمختلف جهات البلاد وشمل 1406 مبحوثًا من مختلف الفئات الى جملة من النتائج لعلّ أهمها:

- وجدت الأسر نفسها في قلب الجائحة دون موارد كما زادت مسؤولياتها تجاه الأفراد بعد أن عجزت مؤسسات الدولة الصحية وغير الصحية عن القيام بدورها.
- خلقت الجائحة حالة من الهلع الجماعي الناجم أساسًا عن ضعف إمكانيات الأسر عموماً وعدم استعدادها لمثل هذه المخاطر وكذلك لتخلي الدولة عن الفئات الأكثر هشاشة وسوء إدارة الحكومة للأزمة الصحية وتذبذب قراراتها واهتزاز ثقة الأسر فيها. تحوّل الهلع تدريجياً الى تطبيع مع الوباء بعد أن طالبت الأزمة واستحال على الأسر مزيد الصمود مع العلم وأن نسبة الأسر التي أصيب أحد أفرادها بالفيروس قد بلغت 43% من مجموع الأسر المعنية بالدراسة.
- لم تزد الجائحة الفئات الهشة سوى مزيداً من الهشاشة حيث تدهورت المداخل العائلية واضطر العديد من أرباب الأسر الى تغيير أنشطتهم المهنية (9.3%) مع العلم وأن 30% من الأسر التي شملتها الدراسة لا تملك أي مداخل قارة.
- عرفت الأسر التونسية أزمت عديدة خلال الجائحة في علاقة أساساً بضيق الفضاءات وضعف الإمكانيات المادية كما شهدت توترات عديدة بين الفاعلين ولكن الجائحة ساهمت كذلك في ادعاء عديد القيم التضامنية داخل الأسر وخاصة بالنسبة لمن أصيبوا بالوباء مع العلم وأن 70% منهم قد تلقوا العلاج في المنزل.
- كشفت الجائحة في تونس عن أزمة عميقة في فرص الدمج الاجتماعي مشاركة الأفراد في الحياة العامة وقد كانت مجالاً لسيطرة مشاعر الإحباط واليأس وفقدان الأمل في المستقبل.

كما زادت في نفور المواطنين عموما من الحياة السياسية والمدنية مع العلم وأن نسق التوتر السياسي لم يهدأ تقريبا خلال كافة مراحل الجائحة. ساهمت مختلف هذه العوامل في تنامي العوامل الطاردة

- كانت الجائحة اطارا لولادة بعض المشاريع الهجرية وتعزيز بعضها الآخر خاصة وأن علاقة الأسر التونسية مع الحراك الجغرافي داخليا وخارجيا عريقة اذ أن نسبة المستجوبين الذي سبق لهم التنقل داخل البلاد للعيش في معتمديات أخرى أو ولايات غير ولاياتهم الأصلية قد بلغت على التوالي 28.6 و38.4% أما تجارب الهجرة الخارجية فتعني 12.7% منهم. وفي حين شملت الهجرة الداخلية مختلف الفئات العمرية نجد أن الهجرة الخارجية هي امتياز فازت به الأجيال الأكبر عمرا نظرا للتشديد المتواصل لإجراءات الهجرة على الصعيد الدولي.

- تمثل الأسرة في المناطق التي تعرف حركة هجرية كبيرة مع الخارج اطارا للتنشئة على الهجرة حيث ينشأ المشروع الهجري بصفة مبكرة ويتعزز من خلال تواصل الأسرة مع المهاجر وحضور هذا الأخير بصفة متواصلة في حياة بقية الأفراد. وقد كانت الجائحة فرصة ليكتسب المشروع الهجري مشروعية إضافية استمدها من التفوق الطبي والصحي والنجاعة في مقاومة الوباء وآليات الحماية الاجتماعية والصحية التي استفاد منها المهاجرون في بلدان اقامتهم وحُرم منها أقرباءهم بوطنهم.

- بلغت نوايا الهجرة في ظل الجائحة مستويات قياسية اذ تبلغ نسبة التونسيين ممن يفكرون بشكل دائم في الهجرة الى الخارج 25.3% وهي عند فئة الشباب البالغ من العمر 18-29 سنة 46.8%. كما يُلاحظ أن نوايا الهجرة أصبحت تعني جزءا هاما من التونسيات لا يقل عن 20%.

- تتحدّد الرغبة في الهجرة وفق جدلية العوامل الطاردة - العوامل المنقّرة اذ يبدو أن قرار الهجرة هو نتيجة تفاعل مجموعة من العناصر منها ما يشجّع الفرد على الهجرة وينقّره من البلاد ومنها ما يشجّعه على البقاء وينقّره من الهجرة

- تمثل العوامل المحقّزة على الهجرة أساسا، وحسب أهميتها كما جاءت في تصنيف المبحوثين، في العامل الاقتصادي والعامل النفسي وواقع الحريات والعامل العائلي والعامل الذاتي

- تتمثل العوامل المنقّرة من الهجرة أساسا، وحسب أهميتها كما جاءت في تصنيف المبحوثين، في العامل العائلي والعامل الاقتصادي والعامل المهني وعامل الواقعية والعامل النفسي.

- تحافظ فرنسا وإيطاليا على مكانتهما باعتبارهما الوجهة الأولى للتونسيين منذ عقود في حين تبدو كل من ألمانيا وكندا كوجهتان جديدتان وكذلك، وبدرجة أقل، البلدان الاسكندنافية وأمريكا وهو ما يحيل الى تغيّر خصائص المهاجرين ونوعية مشاريعهم وأهدافهم من الهجرة الى الخارج

- بلغ انجاز المشاريع الهجرية التي تم تحديدها من خلال العمل الميداني مستويات مختلفة اذ تتراوح بين التأجيل في انتظار مرور الجائحة والاستعداد عبر جمع تكاليف السفر ومواصلة البحث عن "حرقة" عبر البحر ومحاولة اقناع العائلة لكسب مسانبتها ومواصلة اكتساب الخبرات الضرورية لتكوين ملف مثل تلقي التكوين في اللغات.

- تختلف الوسائل المزمع تعبئتها في إطار المشروع الهجري باختلاف خصائص المهاجرين ونوعية مشاريعهم. ففي حين يعوّل البعض من المهاجرين على مكاتب الهجرة للحصول على عقود عمل قانونية يعوّل قسم آخر على الحرقة باعتبارها الطريقة الأنجع والأسرع في الوقت الحالي كما أن البعض منهم يعوّل على الشبكات العائلية والقرابية للاتحاق ببعض أفراد العائلة أو عبر عقود عمل يتم شراؤها في بلد الاقامة.

مراجع بليوغرافية

البنك العالمي، إزالة الحواجز من أجل اشراك الشباب. تونس. 2014

خالد طبابي، التقرير السنوي للهجرة 2019. المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. تونس 2019.

خالد طبابي، من احباط الاحتجاج الاجتماعي الى المشروع الهجري غير النظامي. دراسة سوسيولوجية حول العلاقة السببية بين الاحتجاج الاجتماعي والهجرة غير النظامية. ضمن ورقات تحليلية حول قضايا الهجرة "البحث عن الكرامة". المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. تونس أبريل 2020.

زهير بن جنات: المفاضلة بين الحقوق والحريات تشريع لانتهاكات حقوق الانسان. تحليل منشورات نشطاء الحركات الاجتماعية على فايسبوك أثناء فترة الحجر الصحي الشامل. ضمن كتاب جماعي، في اللاتفاضلية بين الحقوق والحريات، في علاقة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالحريات الفردية. (تحت اشراف وحيد الفرشيشي)، الجمعية التونسية للحريات الفردية. تونس 2020

سيرين الغنوشي كوفيد 19 في تونس: السياسة، السياسات العامة، والتحديات الاحتجاجية. قراءة في احداث السنة الأولى من الجائحة مارس 2020 – مارس 2021. الملتقى العربي للحماية الاجتماعية من كوفيد، المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية تونس – ورقة عمل 1°. مارس 2021.

صندوق الأمم المتحدة للسكان: دوافع الهجرة والحاجيات للخدمات المتعلقة بالصحة الجنسية والانجابية. دراسة كمية ونوعية للمهاجرين الشباب في تونس الكبرى. مشروع الهجرات المختلطة للشباب. أبريل 2018

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، الشباب والهجرة غير النظامية في تونس دراسة ميدانية للتمثيلات الاجتماعية والممارسات والانتظارات (اعداد عبد الستار السحباتي).. تونس 2016

عزام محبوب: جائحة كوفيد 19 في تونس. التفاوت والهشاشة والفقر والبطالة. المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. تونس 2020

فؤاد غربالي، المهاجرون غير النظاميين وتجربة الترحيل القسري من إيطاليا. المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. تونس 2019

ماهر حنين، سوسيولوجيا الهامش في زمن الكورونا، الخوف، الهشاشة والانتظارات. المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. تونس أبريل 2020.

محمد علي بن زينة وألفة لموم ومريم عبد الباقي (اشراف)، شباب في الهوامش. تمثلت المخاطر والسياسة والدين في تطاوين الشمالية والقصرين الشمالية ودوار هيشر. انتاشيونال أليرت. تونس نوفمبر 2020

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، المرصد الاجتماعي التونسي، نشرية السداسي الأول 2021. تونس 2021

المعهد الوطني للإحصاء، المسح الوطني حول نظرة المواطن الى الأمن والحريات والحوكمة المحلية. تونس 2017

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. التقرير السنوي للعنف لسنة 2020.

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. الهجرة. كراسات المنتدى. العدد 1. تنسيق سفيان جاب الله. سبتمبر 2020.

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. في تدبير أزمة كوفيد 19 في تونس. سياسيات الدولة والفئات الأكثر تضرراً. كراسات المنتدى. العدد 4. تنسيق سفيان جاب الله. سبتمبر 2020.

مهدي العشي، أوروبا الحصن. دراسة حول التشديد في سياسة منح تأشيرات شنغن، تبعاته وضحاياه. المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. دت

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، التقرير السنوي للهجرة 2020. اعداد نسرين بن بلقاسم. تونس 2020

Ben Jannet Zouheir, « Jeunes, Etat et dynamique de la révolution en Tunisie. Enquête dans le Bassin-Minier de Gafsa », in, Christiana Constantopoulou (S/D): Récits de la crise : mythes et réalités de la société contemporaine », collection logiques sociales, l'Harmattan. Paris. 2017

Boubakri Hassan et Potot Swanie, "Migrations et révolution en Tunisie", Revue Tunisienne des Sciences Sociales (RTSS), n°141, 2013, pp.59-78

Bounouh Abdelala et Gsir Sonia, Migrations et environnement en Tunisie : Relations complexes et défis pour le développement. OIM / PNUD. Décembre 2017

Collectif : Droit à la sante au temps de la crise Covid 19, Quand les inégalités font souffrir et tuent. Ouvrage coordonné par Maher Hanin. Forum Tunisien des Droits Economiques et Sociaux. 2021

Collectif, Déséquilibres régionaux et inégalités sociales en Tunisie, Axes et actions prioritaires. Ouvrage coordonné par Amina MAGOURI. Friedrich Ebert Stiftung. Tunis. 2018

Djamba Yanyi K.: Les déterminants des intentions de migration internationale parmi les Éthiopiens et les Sud-Africains. <https://www.erudit.org/fr/livres/actes-des-colloques-de-lassociation-internationale-des-demographes-de-langue-francaise/les-migrations-internationales-observation-analyse-perspectives-actes-colloque/001360co/>

Dubet François, La préférence pour l'inégalité, Comprendre la crise des solidarités. Seuil. 2014

Jan Michel Berthelot, Les vertus de l'incertitude. Quadrige. 2004

Martuccelli Danilo, La condition sociale moderne, l'avenir d'une inquiétude. Gallimard.2017

Paugam Serge, Vivre ensemble dans un monde incertain. L'aube. 2015

Piguet Étienne, « Les théories des migrations. Synthèse de la prise de décision individuelle », Revue européenne des migrations internationales [En ligne], vol. 29 - n°3 | 2013, mis en ligne le 01 septembre 2016, consulté le 17 mars 2021. URL : <http://journals.openedition.org/remi/6571> ; DOI : <https://doi.org/10.4000/remi.6571>



الملتقى العربي للحماية
الاجتماعية من كوفيد

تونس، ديسمبر 2021

تم انجاز هذا العمل بمساعدة منحة مقدمة من مركز بحوث التنمية الدولية، أوتواوا، كندا. ان الآراء الواردة في هذا العمل لا تمثل آراء المركز أو آراء مجلس محافظي المركز.

 **IDRC | CRDI**
International Development Research Centre
Centre de recherches pour le développement international

